٢٠/٣/٥/٩٩

الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الاسلامي

العدد الثاني والعشرون

السنة السادسة

شتاء العام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

محمد السماك

مكتبة الروضة العيدرية
الرقم ٨١٠٧
تاريخ ٢٠١٤/٢/١٢

تصدر عن:

دار الاجتهاد للابحاث والترجمة والنشر

ص.ب.: 5581/14 ــ بيروت ــ لبنان ــ تلفون: 866666، 862205

ساقية الجنزير ــ بناية برج الكارلتون ــ الطابق الثاني

الاستشراق ومنهجيّة النقد عند المسلمين المعاصرين

السيد محمد الشاهد

مشكلة تعريف المصطلح

كثر الحديث في العقدين الأخيرين من هذا القرن العشرين عما يسمى في بلادنا «ظاهرة الاستشراق»، شارك فيه المتخصص وغير المتخصص، من يعرف لغات الاستشراق ومن لا يعرفها، فجاء معظم الحديث نقولا عن نقول أخذت عن ترجمات فيها الصواب والخطأ، وأصبح ميدان الاستشراق أو كاد حلاً لمن أراد التأليف السريع لا يتطلب من طالبه سوى جمع بعض ما سبق، وتوليفه وتزيينه بعناوين جذابة ترضي ذوق متوسطي الثقافة.

إنك لا تكاد تجد بحثاً عن الاستشراق لا يرجع الاستشراق إلى الاستعمار والتنصير والمكر، والصراع وما شابه ذلك من كلمات مثيرة كثيراً ما تخرجه عن المنهج العلمي الذي يدعيه المؤلف ويرجوه القارىء، وكأن الاستعمار والتنصير والمكر والصراع لم يكن لها وجود قبل ظهور الاستشراق، أو أن الاستشراق لم يبدأ قبل الإسلام، أو كأن الاستشراق لا عمل ولا هدف له سوى الكيد للإسلام فترادف في مفهومنا مصطلح الاستشراق مع الكفر والعداء والصهيونية والماسونية، وكل ما نظن فيه السوء ونتوجس منه الشر.

هذا الفهم القاصر للاستشراق سهل لنا تعليق كل أسباب انحطاطنا وتخلفنا على هذا المشجب متعدد الألوان، فتارة لونه الغزو الفكري، وتارة التغريب الثقافي، وتارة أخرى التنصير، أو التبشير، والعلمانية، وحدد لنا مسبقاً أساليب بحثنا فيه التي

أبعدت كثيراً من الأبحاث عن الموضوعية العلمية فصرنا نبحث فيه فقط عن السلبيات فنضخمها، وإذا تعثرنا صدفة ببعض الايجابيات حططنا من قيمتها وسؤنا القصد من ورائها، وقذفنا كل من يحاول اعطاءها قدرها التزاماً بالمنهج العلمي بشبهة التعاطف والتعاون والتحيز معهم، وقد يصل حماسنا لفهمنا وتصورنا وما نتبناه دون غيره إلى التشكيك في عقيدته.

لقد كثرت المؤلفات التي تضع في عين اعتبارِها إرضاء مستوى معين من القراء، وطال عصر هذا النوع من المؤلفات حتى أصبحنا غرباء عن المنهج العلمي فلم نعد نحسنه، وإن ابتغيناه، وتضاءل عدد أنصاره ومتقنيه، وضعف شأنهم وقلت شهرتهم، فاضطر بعضهم على مضض أن يدخل بعلمه سوق الاستهلاك المحلي، وتعفف البعض الآخر عن ذلك فتضاءل عطاؤه بل ورغبته في العطاء. إن الاستشراق «علم» تعمقت جذوره، واتسعت مجالاته، واختلفت موضوعاته وتعددت مناهجه، وتحددت ضوابطه.

إن من ينكر علاقة الاستشراق لكل ما ينسب إليه في كتاباتنا، الاستعمار والتنصير في مقدمتها، يرتكب خطأ لا شك فيه ولكن من يقصر الاستشراق على كونه مساعداً للاستعمار والتنصير لا يقل خطأه عن الأول.

فالاستشراق وإن كان قد نشأ بالفعل في أحضان الكنيسة وكان الكيد للإسلام أهم أهدافه، إلا أن هذه النشأة الأولى، وأقصد هنا نشأة الاستشراق الأكاديمي، بخلاف الاستشراق الفردي أو الشخصي غير المنظم، قد فقدت كثيراً من تأثيرها على تطور هذا العلم حتى أنه قد وصل هذا التأثير إلى مرحلة غاية في الضآلة وليس هذا فقط بل تحول عمل الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى مجال نقد الكنيسة وظهر صراع أو قل تنافس ومزاحمة بين المستشرقين والثيولوجيين الذين يهتمون بالدراسات الشرقية والإسلامية على وجه الخصوص، وأكثر من ذلك، فلقد تأثر بعض الثيولوجين النصارى بكتابات بعض المستشرقين فشاركوهم موقفهم النقدي من الكنيسة التي ينتمون إليها اقرأ مثلاً كتاب: «علوم القرآن للمسيحيين» للثيولوجي الألماني المعروف باول شفارتزناو، حيث يظهر ما في القرآن الكريم من معلومات صحيحة عن المسيحية الأولى (الأصلية)، واقرأ كتاب «صورة عيسى في القرآن الكريم» للثيولوجي الفلندي «هايكوزازينين»، الذي أكد فيه على أن القرآن الكريم، كرم عيسى ـ عليه

السلام ـ ووصف حقيقته بشكل دقيق يفوق ما جاء عنه في كتب المسيحية.

وأقرأ كتاب «الإسلام» للمستشرق الفرنسي «أندريه ميكيل» الذي عرضه فيه لتاريخ «الإسلام منذ البعثة إلى عهد عبد الناصر» بأسلوب علمي فيه قدر كبير من الموضوعية.

وأقرأ في كتاب «المسيحية وديانات العالم» القسم الخاص بالإسلام والمسيحية ما ذكره مؤلفه الرئيس الثيولوجي المعروف «هانس كونج» ناقداً لأهم تعاليم المسيحية الكنسية مادحاً لكثير مما جاء في القرآن الكريم، ومقدراً للنبي محمد ـ ﷺ ـ وكذلك ما كتبه المستشرق المعروف «جوزيف فان إس» في عرضه لوجهة نظر الإسلام من أن الإسلام قد فهم خطأ في الغرب وأنه يختلف تماماً عن الصورة التي تنقلها كثير من المؤلفات ووسائل الأعلام الغربية.

وأقرأ ما كتبته المستشرقة «زيجريد هونكه» في كتابها «شمس الله تشرق على الغرب»، وكتاب «جِمال على معطف القيصر»، ثم كتابها الأخير «الله مختلف تماماً» ترد فيه على أهم الشبهات التي تثار ضد الإسلام في الغرب، وتأخذ موقفاً واضحاً إلى جانب الحق وهو الإسلام.

أضف إلى ذلك تلك الدراسة القيمة والجهود الضخمة الذي قام بها بعض المستشرقين الألمان المعاصرين، على رأسهم أودو تفوروشكا تحت إشراف الأستاذ الدكتور: عبد الجواد فلاتوري مدير أكاديمية العلوم الإسلامية بمدينة كولن (ألمانيا الغربية). وتناولت المقررات المدرسية الألمانية فيما يتعلق بالإسلام، فأظهرت التصورات الخاطئة فيها وذكرت تصويبها في ثمان مجلدات، وانتقل ميدان هذا العمل إلى المقررات المدرسية في كل من النمسا وفرنسا وسيوسع ليشمل كل الدول الأوروبية الأخرى.

وقد ظهر في العقد الماضي صراع بين الثيولوجيين الناقدين للكنيسة المتأثرين ببعض من كتب بانصاف عن الإسلام، والثيولوجيين المحافظين انعكس في بعض المؤلفات وندوات الحوار التي كان موضوعها الرئيسي حوار الإسلام مع المسيحية، اذكر منها على سبيل المثال ندوة شاركتُ فيها، عقدت في يونيو 1985 م، بجامعة «توبنجن»، تحاور فيها «هانس كونج» الثيولوجي الكاثوليكي سابق الذكر مع

الثيولوجي البروتستنتي المعروف «بانِنبرج» من جامعة ميونيخ، انتهت بخلاف كبير بين وجهات نظريهما حول تفسير بعض التعاليم الدينية المسيحية مثل «البعث بعد الموت»، ومقارنته بالتصور الإسلامي للبعث.

وقد عرف التاريخ الوسيط والمعاصر نماذج لثيولوجيين كانوا مع تحاملهم على الإسلام من أشد ناقدي الكنيسة بدءًا من «مارتن لوثر» (ت 1546 م) الذي وصف الكنيسة بأنها كنيسة الشيطان إلى الثيولوجي المعاصر «كارل هاينز ديشنر» الذي بدأ مشروعاً ضخماً أسماه «التاريخ الإجرامي للمسيحية، نشر منه حتى الآن ثلاثة مجلدات خصص منها لتحريف الكتب المقدسة الجزء الأول والأكبر من المجلد الثالث. ويخطط لإصدار أكثر من عشرة مجلدات يؤرخ فيها للجرائم التي ارتكبتها الكنيسة في حق الإنسانية منذ بدايتها إلى القرن العشرين.

لقد ظهر في الاستشراق الأوروبي بصفة عامة، والالماني بصفة خاصة تيار جديد ينزع إلى رؤية جديدة للإسلام تتخلى إلى حد بعيد عن النظرة المذهبية أو القومية أو العرقية تحاول دراسة الإسلام باعتباره ظاهرة اجتماعية أو حركة إصلاحية استهدفت تحرير الإنسان من تصورات قديمة لا تتفق مع مكان الإنسان في هذه الطبيعة، ورغم أن الحكم على الإسلام بأنه مجرد حركة إصلاحية ظهرت في ظروف اجتماعية معينة وسعت للوصول إلى أهداف إنسانية محددة لا يقبله أي مسلم، لأن المسلم يرى في الإسلام منهجاً إلهياً جاء لإصلاح البشرية في كل مكان وزمان، أي يتخطى حدود فعل الظاهرة الاجتماعية ليصبح آخر مراحل تطور الإنسان، إلا أن مجرد ظهور هذا الاتجاه في بلاد كانت إلى عهد قريب تنكر كل صفة ايجابية للإسلام ومجرد محاولة اتباع هذا التيار الجديد دراسة الإسلام بقدر من الموضوعية هو تطور يستحق الدراسة والتقويم تمهيداً لمحاولة استثماره لصالح ديننا الحنيف الذي يتضمن صلاح الإنسانية جمعاء.

ويعتبر المستشرق الألماني فرتزشتبات (برلين) من أوائل من خطا في هذا الاتجاه ووضع معالمه الأولى، ثم تبعه البرشت نوت (هامبورج) وباربار يوهانس (برلين) أما المستشرقة المعروفة أناماري شيميلَ (بون) فهي تذهب إلى أبعد من ذلك في دفاعها عن الإسلام في كل كتاباتها ومحاضراتها حتى أشيع قبل عامين تقريباً في بعض الصحف الألمانية أنها قد أسلمت، وفي حديث خاص معها لم ترد تأكيد هذه الشائعة ولا نفيها، وأصرت أن تحتفظ بذلك لنفسها إلا أن كثرة ذكرها لعبارات الحمد والثناء والتسبيح

التي يرددها المسلمون تؤكد لي أنها مسلمة في قلبها. وإن لم تعلن ذلك، فهل حظيت هذه الظاهرة في كتاباتنا الكثيرة بأي قدر من الاهتمام، وهل مجرد تكرار ما كتب قبل أكثر من خمسين عاماً عن الاستشراق أهم وأجدى من دراسة هذا التطور العلمي الجديد في ساحة الدراسات الاستشراقية الغربية؟!

ما هو الاستشراق؟ محاولة لتعريف هذا المصطلح

غني عن الإعادة فضلاً عن الإضافة أن «الاستشراق» يدل على الدراسات التي تتناول علوم الشرق بالبحث والدراسة ولا خلاف على ذلك بين أهل الاختصاص، وإنما الخلاف المعروف في هذا المجال هو حول تعريف المستشرق الذي يبدو لأول وهلة غاية في البساطة فهو هذا العالم الذي يقوم ببحث ودراسة الشرق. إلا أن الأمر يزداد تعقيداً إذا حاولنا أن نعمم هذا التعريف على كل من يدرس ويبحث في علوم الشرق، ومن هنا فضل البعض قصر هذا التعريف على غير الشرقيين الذين تخصصوا في دراسة الشرق استناداً إلى التركيب اللغوي لكلمة «استشراق» فأصل الكلمة كما هو معروف «شرق»، والمقطع الأول المكون من حرف أ س ت يضاف إلى الفعل ليدل على الطلب بشكل عام وطلب شيء غير موجود لحظة الطلب بشكل أدق، فكلمة أستأذن «تعني طلب الأذن الذي تحتاجه وكذلك استغفر» طلب المغفرة التي يحتاجها وهكذا بذلك يستحيل كون العالم الشرقي مستشرقاً لأنه شرقي أولاً، وعالم بعلوم الشرق ثانياً، فماذا بقي له أن يطلب لكي يطلق عليه اسم «مستشرق»؟ فلا يبقى لنا إلا أن نقصر دلالة لفظ المستشرق على غير الشرقيين من العلماء الذين يطلبون علماً غريباً عنهم لا يشكلون هم وتاريخهم وثقافتهم مادته الأساسية.

ثمة حرج اخر يوقعنا فيه اطلاق لفظ مستشرق على الشرقي الذي تخصص في علوم الشرق أو أحد فروعها، كما هو معروف في تحُدد مجالات التخصص في الشرقيات أو علوم الشرق، ويتمثل هذا الحرج في أننا إذا صح لنا إطلاق صفة المستشرق على الشرقي المتخصص في أحد علوم الشرق، لزمنا أن نسمي كل علماء العلوم الإسلامية وعلى وجه الخصوص علماء الشريعة الإسلامية «مستشرقين»، لأنهم تخصصوا في أهم علوم الشرق وطلبوه بالدراسة والبحث، فهل يستقيم ذلك عند من يوسعون تعريف «المستشرق» ليشمل الشرقي وغير الشرقي؟!

أعود إلى مصطلح «الاستشراق» الذي بنيت عليه صفة «المستشرق» ولنحاول فهم الأصل اللغوي لهذا المصطلح العلمي الذي نستخدمه دون بحث في أصله، ونكتفي عند التعرض للتعريف بأنه مترجم لكلمة (Orientalism) في اللغة الإنجليزية (Orientalisme) في الفرنسية، و (Orientalistik) في اللغة الألمانية، مستندين إلى أن الأصل في هذه الكلمة هو (Orient) التي تعني «الشرق» وما يضاف إلى هذا الأصل يدل على التخصص العلمي.

ولنتأمل معنى كلمة «الشرق» التي ترجمت إليها كلمة (Orient) مقابلة لكلمة الغرب (Occident) فنجد أن هذه الكلمات في اللغة العربية ذات دلالة جغرافية وفلكية. ففي الجغرافية تعني ما يقع في جهة «الشرق» من المتحدث، والفلكية تعني ما يقع في الجهة التي تشرق منها الشمس.

فإذا كان أصل هذا المصطلح أورُبيا فإنه لا بد أن يشير إلى دراسة علوم البلاد التي تقع إلى شرق أوروبا جغرافياً أو فلكياً أو هما معاً، فهل تقع البلاد التي تتناولها الدراسات الشرقية في أوروبا بالفعل في الجهة الشرقية من أوروبا؟!، وهل تتناول الدراسات الشرقية (الاستشراق) علوم شرق أوروبا التي تقع بالفعل في الجهة الشرقية من أوروبا؟!

بما لا شك فيه أن الدراسات الاستشراقية أو ما يسمي بالعلوم الشرقية في أوروبا تتناول تاريخ وثقافة المنطقة الواقعة في الجنوب إلى الجنوب الشرقي من أوروبا، وبهذا لا تنطبق عليها صفة الشرق من حيث المفهوم الجغرافي الذي يعبر عنه في الثلاث لغات الرئيسة بكلمة (East) في الإنجليزية و (est) بالفرنسية، و (Ost) بالألمانية، ويجمع معنى هذه الكلمات في لغاتها كلاً من المعنى الجغرافي والفلكي كما هو معروف.

لا بد إذن من البحث عن دلالة أخرى لمصطلح «الشرق» غير الدلات الجغرافية الفلكية لهذه الكلمة، فنجد في اللغة الألمانية مثلاً يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة أخرى تتميز بطابع معنوي وهو (Morgenland) وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدمه في اللغة نفسها كلمة (Abendland) وتعني بلاد

المساء لتدل على الظلام والراحة، وهذه الكلمات الألمانية هي الترجمة الحرفية لمعنى كلمة (Orient) الشرق وكلمة: occident أي الغرب اللاتينيتين، ولنبحث الآن عن المدلول اللغوي الأصلي لكلمة (Orient) في اللغات الأوروبية الثلاث المستمدة من الأصل اللاتيني، فنجد معناها في اللغة اللاتينية (Oriänt) وتعني حرفياً يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية (Orienter) تعنى «وجّه أو هدى أو أرشد»، وبالإنجليزية (Orientation أو Orientate) وتعني «توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع، أو الفكر أو الأدب، أو توجيه الفكر نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي»، أما في اللغة الألمانية (Sich Orientieren) تعني يجمع معلومات (معرفة) عن شيء ما. (انظر هذه المادة في المعاجم اللغوية التالية: للألمانية (Der Duden: Fremdaworterbuch) للإنجليزية (Webster) للفرنسية (Larousse)).

تشترك كل الترجمات لكلمة (Orient أي الشرق) في اللغات الأوروبية الأربع، والتي تعتبر بدورها أصلاً للغات الأوروبية الحديثة الأخرى في أن معناها يتمركز حول طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه. . الخ.

فاستخدام كلمة بهذه الدلالة اسماً لعلوم تبحث في منطقة معينة تعني اعترافاً بأن العلم (المعرفة والارشاد. . . وكان يطلب من هذه المنطقة، وأن وصفها بالشرق يعني في المقام الأول أنها المنطقة التي أشرقت فيها شمس المعرفة، وليست الشمس بمعناها الحسي المعروف.

ويفسر لنا هذا الفهم اختيار المستشرقة «زيجريد هونكه» هذه العبارة عنواناً لأهم مؤلفاتها وهو «شمس الله تشرق على الغرب» وليس شمس «العرب» كما وردت في الترجمة الخاطئة لهذا العنوان عن قصد أو غير قصد. والعجيب أن كثيراً من مثقفي المسلمين يرددون هذه الترجمة الخاطئة دون محاولة للتثبت من صحتها الذي يتطلب بالضرورة التمكن من اللغة الألمانية فمحتوى الكتاب مبني على المعرفة الإسلامية (الإسلام وعلمائه وعلومه) وليس المعرفة العربية وآداب لغة العرب، وربط الشمس (بمعنى العلم والمعرفة) بلفظ الجلالة يعني بالضرورة العلوم الإسلامية وكونها «تشرق» تعني أنها مصدر المعرفة للغرب.

يهمنا هنا التأكيد على أن كلمة «الشرق» هنا مدلولها معنوي وليس مادية وارتباط

الشرق والشروق بالعلم لم تخترعه «زيجريد هونكه» فضلاً عن كاتب هذه السطور بل نجده في مصطلحاتنا العلمية القديمة متمثلاً فيما عرف عند المتصوفة بالإشراق (Illumination) الذي تأسست عليه نظريتهم في المعرفة، فهي معرفة اشراقيه (Illuminism) تفيض على الإنسان من مصدرها الإلّهي، وتميز بذلك عن المعارف العقلية (Rationalism) والنقلية (Revealism) والحسية (Sensualism) التي تمسك بها غير المتصوفة من العلماء والفلاسفة والمتكلمين. إلا أن تاريخ هذا المصطلح «الاستشراق» لا يرجع إلى المتصوفة، أو المعرفة الإشراقية في أصله اللغوي، لأنه في استخدامه اللغوي المعاصر لا يحمل هذا المعنى الروحاني (Spiritualism) بل يدل على علم «جاف» يشمل إلى جانب معرفة تاريخ وأحوال المتصوفة في الشرق كل عناصر الثقافة الشرقية من علوم وتاريخ وعقيدة وفكر. . . الخ.

بذلك يتجدد السؤال: لماذا نسبت هذه العلوم إلى الشرق؟

والإجابة التي اقتنع بها شخصياً هي أن مصادر العلوم الأوروبية يرجعها الأوروبيون عادة إلى اليونان إلا أن اليونان ليست في الشرق لا بالنسبة إلى أوروبا، ولا بالنسبة إلينا في العالم «الشرقي»، فيكون التفسير الوحيد الذي يمكن اعتباره هو أن هذه الصفة تعود إلى المنطقة التي أخذ عنها اليونان معارفهم العلمية وهي منطقة العالم العربي والإسلامي في الوقت الراهن، فمن الثابت تاريخياً أن أوائل أكابر الفلاسفة اليونان قد أخذوا علومهم من الحضارات الشرقية وأولها الحضارة المصرية القديمة، وأهم تلك الشخصيات التي عرفت تاريخ تعلمها ونقلها للعلوم من حضارة المصريين. هم «فيثاغورس وأفلاطون»، وفيثاغورس معروف نظريته الهندسية بنظرية «فيثاغورس»، وأفلاطون كان قد افتتح مدرسته الأولى في أثينا بعد عودته من مصر (عين شمس) وكتب عليها عبارة: «لا يدخلها من لا يعرف الهندسة» هذا فيما كان قبل الميلاد، أما بعد الميلاد فإن انبعاث المذهب الأفلاطوني في صورته الجديدة أي فيما يسمى بالأفلاطونية المحدثة، كان قد بدأ على يد «ڤيلون» الفيلسوف الشرقي اليهودي (50 ق. م. ـ 25 م)، ثم أخذ الإطار الفلسفي على يد الفيلسوف المصري أفلوطين (من أبناء صعيد مصر ـ أسيوط ـ توفي عام 270 م)، ثم لم يشهد تاريخ النصرانية في قرونها الأولى مثل القديس أوغسطين، وهو مسيحي شرقي مغربي من مدينة قرطاجة (توفي 430 م).

ثم إن هذه المنطقة، والجزء الغربي منها خاصة هو الذي خص الله به ظهور الديانات السماوية الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، وإذا أضفت إليها وسط آسيا وشرقها وجدت فيها الديانات غير السماوية مثل الزرادشتية (الثنوية)، والبوذية، والهندوسية، وغيرها من الديانات الأقل شهرة.

وبذلك أصبحت أصول العلوم التجريبية والعقلية والروحانية التي وصلت إلى الغرب هي في أساسها شرقية قديمة، أضف إليها بعد ظهور الإسلام العلوم الإسلامية التي طورت هذه المعارف القديمة ومنهجتها وصبغتها بالصبغة الإسلامية حتى تمكن الغرب من الإفادة منها، وإكمال تطويرها وبناء حضارته على أسسها العقلية فقط دون الإيمانية.

ويستنتج من ذلك أن الاستشراق لم يكن فقط المرتكز الأساسي للتنصير والاستعمار فيما بعد بل أيضاً لبناء النهضة العقلية والعلمية في كل مجالات الحياة، ولا أذكر ذلك هنا بغية الافتخار بماضينا فتأخرنا الحاضر قد أفنى عندي كل رغبة في تذكر أي مجد علمي سابق.

هذه محاولة متواضعة لاستكشاف مدلول هذا المصطلح العلمي الذي نستخدمه كثيراً دون محاولة التعرف على أصوله اللغوية، أي دون أن نؤرخ له ونؤصله قبل المضي في استخدامه اسماً أو صفة، وقد ظهر خلال هذا العرض الموجز أن أصل كلمة «الاستشراق» ليس مستمداً من المدلول الجهوي بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس التي هي مصدر العلم. وأن صفة مستشرق ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقياً لأنها تصف حالة طلب لشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب، فالعالم الشرقي المتخصص في علوم الشرق هو عالم في «علوم الشرق» أما العالم الغربي أو غير الشرقي المتخصص في علوم الشرق فهو «مستشرق» كما تدل عليه الحروف الثلاث الأولى لـ فعل «استشرق» وهي (أ، س، ت) التي تدل في اللغة على الطلب وأن توسيع دائرة هذه الصفة «مستشرق» لتشمل الشرقي يؤدي إلى صحة إطلاقها من باب أولى على العلماء المسلمين المتخصصين في العلوم الشرعية، فيسمون أيضاً «مستشرقين»، وهذا خطأ اصطلاحي واضح.

مشكلة منهجية نقد الاستشراق

يقول الله تعالى ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، (المائدة، آية/ 8).

في ضوء هذه الآية الكريمة يمكن النظر إلى ما كتب في نقد الاستشراق من عدة منطلقات هي في حد ذاتها تقويم لتلك الدراسات «النقدية» مقابل تقسيم الدراسات الاستشراقية إلى متعصب ومعتدل، ومتعاطف، من خلال عرض تلك الدراسات التي تركز بعضها على تبادل القضايا العلمية التي انشغلَ بها المستشرقون، وتركز البعض الآخر على تقويم الأشخاص، أي «المستشرق» ككل، حتى أصبح تركز هذا الجزء على تقويم الموقف العام لكل مستشرق من التراث الإسلامي، وهذه الدراسات التقويمية للأشخاص هي عندي أقل أهمية وعلمية من تلك التي تناولت موضوعات الدراسات الاستشراقية. كلاً على حدة بأسلوب علمي هادىء.

وقبل أن انتقل إلى نقطة أخرى في هذا البحث يحسن التنبيه إلى بعض الأمور التي قد يمر عليها القارىء دون أن يعيرها قدراً كافياً من الاهتمام، وهي:

1 ـ استخدام بعض المصطلحات في صيغة أحكام على الأشخاص أو الأعمال دون محاولة تقويم ذاتي لما يكتبه الناقد. أي بعرض كتاباته على المقاييس نفسها التي احتكم إليها هو في تقويمه للفكر الآخر، مثل التعصب، والعداء، للدين الآخر (الإسلام) وما شابه ذلك.

أي أنه يحاكم الكتابات المخالفة بالمنهج العلمي ذاته الذي قد لا يتقيد هو به في مبادراته أو ردوده على الآخرين.

2 ـ إهمال الخلفية التاريخية والاجتماعية والثقافية القائمة للعمل الاستشراقي موضوع النقد لحساب الخلفية العقدية للباحث (المستشرق) وغياب احتمال الضغط الاجتماعي أو الديني (الكنسي) الذي يحتمل أن يكون الباحث قد خضع له طمعاً في منصب أو مال، ولا يختلف هذا الاحتمال من مكان لآخر أو من زمان لآخر.

3 ـ إهمال احتمال القناعة الذاتية بصحة الادعاءات التي تصدر عن المستشرق ضد الإسلام بسبب قصور أو خلل في المصادر التي ترجمت، أو في منهجها، أو في ترجمتها، وخاصة إذا عرفنا الطريقة التي استخدمت في ترجمة معظم الكتب الإسلامية

عند نقلها إلى اللاتينية في أوائل العصور الوسطى، أو الوقوع تحت تأثير العاطفة الدينية التي هي طبيعة كلِ إنسان يولد في محيط ديني معين وما يتبعه من ميل طبيعي للدفاع عن دينه ضد أي دين آخر، فيؤدي ذلك إلى رؤية غير كاملة متحيزة فلا يرى إلا السوالب في الدين الآخر، وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً لا يرى فيه الباحث تجنياً على ذلك الدين الآخر.

4 ـ احتمال تقصير بعض سلفنا الذين عاشوا حضارة ورقياً عظيمين، وكانت لهم الممالك في أوروبا، أقول احتمال تقصيرهم في واجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن واعتمادهم في بعض الأحيان على السيف، أو تكاسلهم عن الرد بالحجة العقلية المقنعة باحجامهم عن دراسة الدين الآخر، النصرانية أو اليهودية دراسة علمية تثمر حججاً دامغة. نعم كانت هناك جهود لا تنكر لبعض المعتزلة مثل القاضي عبد الجبار الهمذاني، الذي ضمن موسوعته الكلامية «المغني في أبواب التوحيد والعدل» مجلداً كاملاً للرد على الفرق الضالة (الفرق غير الإسلامية) وكذلك بعض الأشاعرة مثل: عبد القاهر البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق»، وأبي بكر الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»، وابن حزم الظاهري في كتابه «الفصل في الملل والنحل»، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم»، ولمحمد بن أيوب القرا في كتاب يعد من أقوى ما كتب في الرد على النصارى، وخاصة عقيدة التثليث والنبوة، واعتمدت عليها أجيال عديدة من الدعاة المسلمين. إلا أن المشكلة لا تتمثل في عدم قدرة المسلمين على الرد وافحام أصحاب الديانات الأخرى بقدر ما تتمثل في عوامل أخرى لها أهمية كبرى في هذا المجال، وأهمها فيما يلي:

1 ـ إن هذه الدراسات ظلت معظمها قاصرة في تداولها وتناولها على فئة مثقفة محدودة لا تصل إلى عامة الناس من أصحاب الديانات الأخرى.

2 ـ إن هذه الكتب القيمة لم تترجم إلى اللغات الأخرى حتى تؤدي فعلها في أصحاب العقائد الأخرى الذين لا يعرفون العربية.

3 ـ إن النزاع المذهبي داخل المجتمع الإسلامي في العصور الأولى بعد عصر النبوة كان له أثر سلبي خطير حدَّ إلى مدى بعيد من انتشار هذه الردود فانشغل كثير من علماء

المسلمين بالرد على المذاهب الإسلامية المخالفة لمذهبهم واجتهدوا في الحط من كل ما يكتبه مخالفوهم، ولم يسلم من هذا النقص أي مذهب إسلامي، فالكل كان يحارب الكل تقريباً، ويتهمه في عقيدته وينسب إليه ما فيه، وما قد لا يكون فيه.

هذه الحالة أفقدت ثقة الآخرين فيما يكتب عنهم، وكيف يحتج بما جاء في كتاب رداً على النصرانية مثلاً من وجهة نظر إسلامية بينما يكون مؤلف هذا الكتاب متهماً في دينه من بعض علماء المسلمين؟ بذلك فقدت أكثر مؤلفاتنا مصداقيتها وبالتالي فاعليتها عند الآخرين.

4 ـ إن وضعنا الحالي لا يختلف كثيراً عما كان في الماضي، فقط يكفي لاتهام مخالف في الرأي أنه تعلم في الغرب، فتحسب عليه كل هفوة صدرت عنه أو تنسب إليه ظلماً، ويتهم بأنه موال لمن تعلم عندهم وناشر لمبادئهم ومعتقداتهم، وسرعان ما نسمع حديث رسول الله ـ ﷺ ـ في وصف الدعاة إلى جهنم هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا (البخاري: كتاب المناقب 22، باب الفتن ـ 11). فننسبب إليهم كل شر وكل قصور ونحملهم مسؤولية تأخرنا وعجزنا عن المواجهة الحضارية مع الآخرين بينما كل ما حل بالمجتمع الإسلامي من تأخر سببه الأساسي قصور ذاتي ناتج عن انحدار إلى جاهلية جديدة ألبسها الكثيرون قشور الإسلام ونسبوها بغير حق إليه ليخفوا وراء ذلك ذلك وجهها الحقيقي القبيح، وصدق في هؤلاء قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (البقرة، آية 79) وقوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (الأعراف، آية 28).

فبدلاً من أن يستفاد مما وصلوا إليه من علم قد لا يتوفر في بلادنا، وقد تكون في أمس الحاجة إليه، يدفعون بدافع الجهل أو الحسد إلى الصمت في أحسن الأحوال لكي لا ينتشر بين العامة ضعف ما يلقي إليهم من «أساتذة» يشغلون درجات علمية مرموقة أبعد ما ينتظر منهم مثل هذه التسطيحات، ولو أنهم خرجوا من دائرتهم الضيقة واطلعوا على ثقافات أخرى لانتقلت قناعتهم بأصالة دينهم وثقافتهم من مجرد إيمان متوارث إلى عين اليقين ولكفوا الآخرين وأنفسهم وقراءهم شر تلك التعميمات الساذجة، والنصيب الأكبر من تلك التعميمات الظالمة التي لا تليق بالمستوى «العلمي»

الرفيع يصب على ذوي النزعة النقدية ومن أضاف إلى ثقافة أمته ثقافات أخرى وتمكن من المقارنة واكتشاف بعض مواقع الخلل في ثقافة أمته فدفعته الغيرة على ثقافته إلى نقدها وتفنيدها ومحاولة الوصول إلى احتمالات الإصلاح ولأنهم بشر فهم خطؤن، ومحتاجون إلى الترشيد من العلماء الصادقين، وليس التشهير من المتعالمين، وأنصافهم.

سؤال بسيط: كيف يعقل أن يكتب في الاستشراق مثلاً، فضلاً عن أن يحكم عليه وعلى دارسيه، من لم يدرسه دراسة علمية، ولا يجيد إحدى لغاته؟ كم ممن نقدوا الاستشراق درسوه، أو يعرفون إحدى لغاته؟!

إن القارىء الواعي لا بد أن يطرح هذا السؤال على كل من يقرأ له. فكما أنني لا آخذ نصيحة طبية من محام، لأنه في هذه الحال ليس من أهل الذكر، فلا يصح أن آخذ رأياً عن الاستشراق من غير المتخصصين، لأنه في هذه الحال سؤال لغير أهل الذكر. هذا بالنسبة للقارىء، أما بالنسبة للكاتب فإن قوله يكون قفوا منه بما ليس له به علم.

وكلمة «المتخصص» هنا لا يقصد بها فقط من كان تخصصه الأكاديمي في موضوع من موضوعات الاستشراق، بل قد يكون الباحث متخصصاً في علم إنساني آخر إلا أن كثرة اطلاعه وتدقيقه واحتكاكه المباشر بالمستشرقين وتفاعله الايجابي مع قضايا هذا العلم والتمرس فيه أكسبته القدرة على الفهم الدقيق لما تتناوله الدراسات الاستشراقية من مشكلات علمية وتمكنه من التتبع الواعي لكل التطورات التي يمر بها هذا العلم.

إن باحثاً هذا حاله قد يتفوق على متخصص أمضى حياته الأكاديمية في الكتابة عن الاستشراق دون تتبع لكل ما يطرأ على هذا المجال من تغيرات في الاهتمام والمنهج.

لقد قرأت بعض الدراسات العلمية التي أنجزها بعض الباحثين المبتدئين الذين لم يتموا بعد دراستهم الأكاديمية ووجدتها تفوق بمراحل بعض الدراسات التي نشرها أساتذة لهؤلاء الباحثين من ذوي الأسماء المعروفة في مجال الدراسات الاستشراقية، لأن تلك الأبحاث الشابة كانت تتعامل مع الاستشراق في واقعه الحي فتظهر بهدوء ما فيه من صالح وطالح دونما تقليد لهذا، أو تقديس لذاك.

- وبعد ماذا عن علاقة الاستشراق بالتنصير والاستعمار والعلمانية والالحاد؟

الاستشراق والتنصير

مما لا يختلف فيه اثنان أن الاستشراق قد ولد في أحضان الكنيسة وظل ابناً باراً لها طوال قرون عديدة يسخِّر كل امكاناته لخدمة أهدافها التنصيرية بتقديم «الأساس العلمي»، الذي يعرف بالشعوب الشرقية وخاصة الإسلامية منها، من حيث المعتقد والفكر والعادات، والتقاليد، وما إلى ذلك، حتى يتمكن المسؤولون عن التنصير من وضع الخطط والأساليب الملائمة التي تحقق لهم أهدافهم سواء كانت تهدف إلى ادخال المسلمين في الدين النصراني أو مجرد اخراج المسلمين من دينهم وتركهم بلا هوية عقدية وثقافية فيسهل استغلالهم اقتصادياً واسترقاقهم ثقافياً.

وكان السبيل الوحيد للوصول إلى هذه الأهداف هو ضرورة تعلم اللغة العربية التي تيسر لهم الاطلاع على أسس الحضارة الإسلامية، أقصد بذلك الأساس الفكري والعقدي الذي بنيت عليه تلك الحضارة، وبتعلمهم اللغة العربية انفتح أمامهم الطريق أمام فهم التراث الإسلامي، وكان لهم في نقله **أربع طرق**:

أولاً: طريق الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية التي كانت آنذاك اللغة الرسمية للكنيسة، ولكل الطقوس الدينية، وقد ظلت هذه اللغة حكراً على رجال الكنيسة وتلامذتهم (الخاصة القليلة من علية القوم إلى عدة قرون أي إلى أن جاء مارتن لوثر (1546 م) ـ ليترجم الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية وأولها اللغة الألمانية التي كان يتحدثها مارتن لوثر.

ثانياً: طريق النشر والتحقيق الذي بدأ في عصر متأخر نسبياً حيث ازدهر منذ القرن التاسع عشر وبعد أن ظهرت الطباعة وانتشرت منذ القرن السابع عشر الميلادي.

ثالثاً: الأعمال المعجمية والفهرسة التي وجدت رواجاً كبيراً في القرن التاسع عشر الميلادي، واكتسبت صبغة علمية متطورة في القرن العشرين وقد اهتمت هذه الأعمال المعجمية أولاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فظهر في منتصف القرن التاسع عشر (عام 1845) أول معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أنجزه المستشرق الألماني جوستاف فلوجل (G. Flügel) تحت عنوان: «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» وبعد هذا المعجم الأساسي الذي استمد منه محمد فؤاد عبد الباقي ـ رحمه الله ـ المادة الرئيسة لمعجمه المسمى «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن

الكريم» ـ ، وتلا ذلك المعجم الذي أنجزه فلوجل عدة أعمال استهدفت زيادة الإفادة وتسهيل البحث في القرآن الكريم، فظهر معجم آخر بعنوان: «تفضيل آيات القرآن الحكيم» «جول لايوم» وأكمله باستدراك مفصل «ادوارد مونتيه» وكان ترتيب هذا المعجم الأخير ترتيباً موضوعياً قسمت فيه آيات القرآن الكريم حسب موضوعاتها. وقد أنجز محمد فارس بركات على نفس المنوال معجماً موضوعياً شبيهاً بذاك أسماه «المرشد إلى آيات القرآن الكريم». ولكن جاء التقسيم في المعجم الثاني مختلفاً في الموضوعات والترتيب وحجم المادة العلمية، فكان معجم لايوم ومونتيه في ثماني عشر مادة، وجاء معجم بركات في أربع وعشرين مادة.

رابعاً: التأليف. وهو الكتابة المستقلة التي تستقي مادتها العلمية مباشرة من المخطوطات في أول الأمر مثلما كان في القرن السابع عشر. ثم بعد ذلك من الأعمال المتخصصة التي تشكل الآن الجانب الأعظم من مؤلفات المستشرقين منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا.

ولا يخرج عمل المستشرقين حتى الآن عن هذه الطرق الأربعة التي شملت كل مجالات العلوم الإسلامية بدءًا من القرآن الكريم، والحديث الشريف إلى الأعمال الفلسفية والعلمية، كمؤلفات «إخوان الصفا» و «ابن سينا» و «وابن رشد» و «جابر بن حيان» و «الخوارزمي» و «الرازي» و «ابن الهيثم» و «البيروني» وغيرهم. ولست أول من يذكر ذلك إلا أنني أود أن أطرح سؤالاً ملحاً على بعض نقاد الاستشراق من الكتاب المسلمين.

إن كان صحيحاً أن المستشرقين قد قاموا بكل تلك الأعمال من ترجمة وتحقيق وفهرسة، وتأليف لخدمة التنصير، وأنا ممن يذهبون إلى ذلك، لكن ألم نستفد نحن المسلمين من كل هذه الأعمال. عدا الترجمة؟ ثم لو افترضنا أننا لم نقصر، كما حدث ولا يزال بالفعل، في أعمال تحقيق التراث، وكنا نحن الذين حققوا ذخائر تراثنا من تاريخ الطبري إلى سيرة ابن هشام وغير ذلك. هل كان في مقدورنا أو من الحكمة أن نحجر على المستشرقين أن يستفيدوا من تحقيقاتنا؟ وهل نكون بذلك قد خدمنا التراث أم خدمنا التنصير؟ ألا يتصور أن يفرح المستشرقون بتوفير جهدهم ووقتهم إذا كانوا قد وجدوا هذا التراث محققاً جاهزاً للقراءة والبحث واستخدامه للوصول إلى أهدافهم؟! ألا تنحصر جهودنا أو تكاد في أحسن الأحوال في مجرد النقد والتفنيد والاستدراك والرد

على تحقيقاتهم ومعاجمهم وفهارسهم؟.

هل استطاع العلماء المسلمون إلى اليوم إنجاز عمل مثل تاريخ الأدب العربي للمستشرق ألماني «كارل بروكلمان» إذا استثنينا من ذلك الكتاب الذي لم يتم بعد، رغم اعتماده في الأساس على كتاب «بروكلمان» أقصد كتاب «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين الذي لا يخرج عن كونه إعادة ترتيب للكتاب الأول، «تاريخ الأدب العربي» مع إضافات واستدراكات ومقدمات تحتوي على جهد مشكور لمؤلفها؟

هل استطاع علماء المسلمين إنجاز عمل مثل دائرة المعارف الإسلامية التي أنجزها «فنسنك» المستشرق الهولندي مع جلة من علماء الاستشراق على ما يحتويه من معلومات خاطئة وافتراءات على الإسلام والمسلمين، ولم يخرج أقصى جهدنا عن مجرد ترجمة بعض أجزائها مع استدراكات وردود مقتضبة يحمد كتابها؟

يبدو أن تراثنا أصبح بالنسبة إلينا كالنفط لا نقوى إلا على مجرد تصديره إلى الغرب الذي يصدره إلينا في صورة مواد استهلاكية شكَّلها هو بما يتفق مع أهدافه هو، وما علينا إلا أن نشتريها بأضعاف تكاليفها ونستهلكها. هكذا تراثنا ذهب إلى المستشرقين وشكلوه كما يريدون وعرضوه في بلادهم في صورة حددوا هم ملامحها، وفتحوا أسواقهم لنا فغزت بلادنا هذه الصورة، وفعلت فعلها لغياب المنافس القوي القادر على تقديم البديل وإظهار الحق وليس الاكتفاء بمجرد التنبيه إلى خطرها، أو محاولة نقضها. هذا الحرج أجبرنا على أن ندفن رؤوسنا في الرمال، ونكتفي بالدعاء عليهم ولعنهم على كل منبر، فهل هذا هو غاية جهد أكثر علمائنا عدداً وأعلاهم صوتاً، وأبلغهم أثراً؟!!

هل توجد عندنا دراسات للكتاب المقدس تقابل ما قام به تيودور نولدكه في كتابه «تاريخ القرآن» تتناول محتواه بطريقة منظمة متكاملة ومفصلة تنبه إلى ما فيه من صواب وما أدخل عليه من تحريف أو كما يسميها علماء المنهج بالدراسة النقدية التاريخية التي تعرض الحقيقة بهدوء وموضوعية؟ أم أنه يكفي عند بعض علمائنا أن يقترح ذلك أحد الباحثين المتخصصين لتحوم حوله الشبهات في أفضل الاحتمالات ويظن فيه أسوأ الظنون بدءًا من الانشغال بأمور تخالف عقيدتنا وانتهاءً بتهمة التعاون المقصود أو غير المقصود مع المنصرين؟!

إن الاستشراق كان وسيلة الغرب الأولى لفهم الحضارة الإسلامية والسعي إلى اللحاق بها. فتعلم علماؤه لغتها ودرسوا عقيدتها. حتى حفظ بعضهم القرآن عن ظهر قلب وتجرّأ على محاولة معارضته باللغة العربية، كما يروي عن «رايموند مارتيني» الذي عاش في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، (انظر نص هذه المعارضة في الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ـ قاسم السامرائي ص (91) هذا القرن الذي أنجز فيه أول معجم لاتيني عربي بعد إنجاز أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم في منتصف القرن الثاني عشر (1143 م) التي قام بانجازها «روبرت الكيتوني» ولم نسمع رغم ذلك أن أحداً كان يريد نشر الإسلام بين بني جلدته أو أن بعضهم قد أسلم بتأثير ما تعلمه أو نشره بل العكس من ذلك ازداد حقدهم على الإسلام، وبنوا حضارة سادت بلاد المسلمين فيما بعد، لأنهم سعوا إلى الحكمة أنَّى وجدوها. أَفَلَسنا أحق الناس بها؟!

ألا يمكننا أن نرد على تلك الحضارة «الغازية» بحضارة تماثلها أو تغلبها لو أننا تعلمنا منهم ما يتفق مع عقيدتنا ويصلح حالنا كما تعلموا منا فأخذوا ما رأوا فيه صالحهم وغلبونا به؟

لماذا لا نخصص معهداً على الأقل في جامعاتنا لدراسة تلك الحضارة الغربية بكل جوانبها التاريخية والعقدية والفكرية، ونستخرج منها ما ننتظر فيه تقدماً دون تضييع لهويتنا الإسلامية، ونسمي هذا المجال «الاستغراب»، أي دراسة علوم الغرب، كما أن «الاستشراق» هو دراسة علوم الشرق، ولا نقتصر على مجرد محاولة محاكاته في الجانب التقني من حضارته، لأن هذا الجانب من إفرازات الخلفية الثقافية الحضارية التي أسسها الغرب بعد دراسة جادة متأنية لكل الحضارات السابقة حينما لم يكن يملك حضارة خاصة به؟ لماذا نخشى على أنفسنا ما لم يخشوه هم على أنفسهم؟ رغم أن سلاحنا أقوى من سلاحهم أضعاف المرات؟

أذكر ملحوظة قالها لي أحد أعلام المستشرقين الألمان المعاصرين الذي يعرف بتعاطفه مع الإسلام والمسلمين أو على أقل تقدير موضوعيته في تناوله لقضايا العالم الإسلامي، وهو الأستاذ الدكتور: «فرتزشتبات» (مدير معهد العلوم الإسلامية السابق في جامعة برلين الحرة) قال: «إن الغرب اهتم ويهتم بدراسة الإسلام والحضارة الإسلامية، أما في العالم الإسلامي فلا نجد اهتماماً أكاديمياً متخصصاً بالحضارة

الغربية استحق أن يخصص له معهداً أو قسماً بالجامعات العربية والإسلامية».

فقد أراد الأستاذ شتبات بهذه الملحوظة أن يقول: إن عدم اهتمام العرب والمسلمين بدراسة الحضارة الغربية دراسة علمية متخصصة يفوِّت عليهم فرصة الاستفادة من العناصر الايجابية في تلك الحضارة رغم ما فيها من سلبيات. وهذا أسلوب مهذب يخفي التنبيه إلى إهمال وتقصير المسلمين في البحث الجاد عن أسباب التقدم أنَّى وُجدت، أو أنه بوجه آخر تعال وتكبر من العلماء المسلمين، حيث يظنون أنهم يملكون وحدهم كل أسباب الحضارة وما عند الغير لا فائدة فيه ولا طائل تحته.

وقد شارك في هذا اللقاء الذي تم على هامش مؤتمر جمعية الدراسات الاستشراقية الألمانية الخامس والعشرين الذي انعقد في مدينة ميونخ في الفترة من 8 - 12 ابريل 1991 م، مستشرقان آخران وافقا على ما لاحظه الأستاذ شتبات. فذكرت له أنني كنت قد اقترحت في إحدى الجامعات الإسلامية التفكير في إنشاء قسم خاص بالدراسات الغربية، اقترحت أن يسمى قسم (علم) الاستغراب، في مقابل «الاستشراق» وعرضت تفصيلاً بأهداف هذا القسم وأهميته للباحث العلمي المسلم، وغير المسلم، وذلك قبل حوالى ثلاثة أعوام، وكنت قد نشرت هذا الاقتراح ضمن مقال صحفي نشر في جريدة المسلمون عدد 1410/270 هـ كان عنوانه «المواجهة حضارية.. والنقد لا يكفي». إلا أن هذا الاقتراح لم يجد رداً ايجابياً من تلك الجهات وقد علق بعض القراء المسلمين على هذا المقال بخوفه من أن يثمر هذا القسم تغريباً ثقافياً وتمرد فكرياً في مجتمعنا الإسلامي.

نعود إلى الموضوع الأساسي وهو منهجنا في تناول الدراسات الاستشراقية والمستشرقين، حقيقة لا تخلو الأبحاث الموجودة الآن بمكتباتنا من بعض الأبحاث الجيدة التي حاول كتابنا أن يلتزموا المنهج العلمي في نقدهم للمستشرقين ودراساتهم فقسموا المستشرقين إلى فئات: المتعصب والموضوعي، والمتعاطف، بعد أن قسموا موضوعات الاستشراق إلى علوم نظرية وتطبيقية وجاءت معظم الأحكام حول الموضوعات التطبيقية ايجابية فيها شيء من الإنصاف لمجهودات بعض المستشرقين الذين أرَّخوا للعلوم الطبيعية عند المسلمين، ومثال ذلك نجده عند الدكتور عبد اللطيف الطيباوي في كتابه «المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية»، والدكتور إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق»، والدكتور: محمود زقزوق في كتابه «الاستشراق والخلفية

الفكرية للصراع الحضاري»، وكذلك نجده في كتابات المرحوم عمر فروخ والخالدي، وصلاح المنجد، إلا أن تلك الدراسات الموضوعية لا تمثل نسبة يعتد بها مقارنة بالدراسات الأخرى التي لا ترى في الاستشراق والمستشرقين سوى شياطين وأعمال شيطانية (انظر على سبيل المثال: كتاب الاستشراق من وجهة نظر إسلامية ـ د/ أحمد عبد الحميد غراب)، وما يسمى أجنة المكر الثلاثة، والاستشراق والمستشرقون ـ للمرحوم مصطفى السباعي، وكذلك للأستاذ أنور الجندي إضافة إلى بعض الأبحاث التي تنشر في مجلاتنا العلمية والثقافية، والصحف اليومية. ولكن لنسأل أولاً ماذا يثير غضبنا ضد المستشرقين بهذه الدرجة هل ما يكتبه بعضهم، أو قل معظمهم ضد الإسلام شيء لم يتوقع منهم أصلاً؟ وهل لو كنا نحن في موقعهم أي إذا كنا ندين بدينهم ونشأنا في مجتمعاتهم وتثقفنا بثقافاتهم فهل كنا سنكتب بطريقة أكثر موضوعية منهم؟!

الإجابة في نظري لا، لعلنا كنا سنذهب إلى أبعد مما ذهبوا إليه في معارضة ومناقضة الدين الآخر.

لقد نبهنا رسولنا الكريم إلى أثر البيئة والمجتمع في تشكيل الفرد ووضعه في موضع يصعب التحول عنه. فقال الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1]. إذا ليس المستشرق سوى مولود تأثر بمحيطه الثقافي المعادي للإسلام. ولم يكلف نفسه عناء التحول عما ورثه عن آبائه من تصور خاطىء لعلَّه يعتقده الصواب كما كان شأن الجاهلية عند بدء النبوة.

فأصبح كذلك وهذه نتيجة منطقية تصدق كلام رسول الله ـ ﷺ ـ الاستثناء من هذه القاعدة هم أولي العزم الذين حاولوا رغم الضغط الاجتماعي بكل جوانبه أن يكتبوا بقدر كبير من الموضوعية عن الدين الذي لم ينشأوا فيه بل اكتسبوه بمحض جهدهم.

لقائل أن يقول لقد بلغتهم الدعوة الإسلامية، فقامت عليهم الحجة، فأقول: لا أسلم أولاً أنه قد قامت عليهم الحجة لأن الدعوة لم تصلهم بالطريقة التي ينتظر أن تؤثر

(1) (رواه البخاري في الجنائز 79 - 92).

فيهم، فليس للإسلام حضور في بلادهم سوى حضور هامشي ليس له أي وزن علمي أكاديمي بل قد يحارب كل مجهود علمي يبذل ويحاط هذا الاتجاه من بعض المسلمين بكل الشكوك والظنون، بل ويقاوم في كثير من الأحوال من بعض المراكز الإسلامية الموجودة هناك، فلا حضور مؤثراً للإسلام لا على المستوى العلمي، ولا المستوى الإعلامي في بلاد الغرب. فكيف تكون قد بلغتهم الدعوة الصحيحة، وبالتالي يحكم بأن الحجة قد قامت عليهم. هذه واحدة والأخرى أن مجرد تبليغ الدعوة الصحيحة لا يمكن أن يأتي بالثمار مباشرة بدون بذل جهد إضافي وصبر وتضحيات لا نهاية لها. انظر إلى الرسول الكريم ـ ﷺ ـ عندما بلغ قومه الدعوة الصحيحة، وأقام على صحتها الدليل القاطع، هل آمن بدعوته أهل قومه وعشيرته الأقربون، إذا استثنينا العدد اليسير الذي آمن به في أول دعوته مثل أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب وخديجة زوجته ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً ـ لا لم يؤمنوا به، بل لم يتركوه فحاربوه واضطروه إلى الهجرة من بلده، وقاتلوه بعد ذلك في عدة معارك يعرفها كل قارىء للتاريخ. فإذا كان هذا هو حال قوم من أظهر الدعوة، فما بالك بمن لم يظهر فيهم بل ظهر ليبطل ديانتهم المحرفة ويقودهم إلى الدين القيم. ثم ماذا فعل الرسول الكريم بعد أن نصره الله، قال لأهل مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء فآمن من آمن، وبقي على الكفر من بقي. ثم تأمل قوله تعالى: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» (آل عمران 159/3). فكيف تريد دعوة من تلعنهم في كل مناسبة وبدون مناسبة. هل تنتظر أن يردوا على غلطتنا بتعاطف مع الإسلام؟. لا، إن هذا المنهج فضلاً عن أنه غير علمي يخالف خلق المسلم وآداب التعايش التي أمرنا الله بها في قوله: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل 135/16)، وقوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف 199/7)، فهل أخذنا قوله تعالى منهجاً في الدعوة لدينه الحنيف وإرشاد من ضل عن سبيله؟!

هذا البحث الذي أعده مدخلاً لدراسة مستفيضة أعرض فيها نماذج من الدراسات الاستشراقية، والدراسات الإسلامية المقابلة في محاولة للكشف عن بعض أوجه النقص المنهجي في كل من الجانبين لا ينبغي أن يساء فهمه. فيتهم صاحبه بالدفاع عن المستشرقين ووجهات نظرهم. أو الافتتان بمنهجهم في البحث، أو تحاملاً على الدراسات الإسلامية المعاصرة التي تتناول الاستشراق والمستشرقين بالنقد. إلا أنني

أحببت أن أنبه إلى ما قد يقع فيه الباحث المسلم عند تناوله لهذا الموضوع الشائك من أخطاء منهجية تنتفي معها الفائدة المرجوة من بحثه على الجانبين الاستشراقي والإسلامي. إضافة إلى أنني لا أدعي لنفسي العصمة من الخطأ فتلك هبة الله التي خص بها أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دون كل البشر الذين لا تخلو أعمالهم من النقص والزلل، وهم في ذلك سواء والفارق الوحيد يكمن في درجات وقدر الخطأ، ورحم الله الإمام مالكاً حيث قال وهو يشير إلى قبر رسولنا الكريم «كلنا يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر».

ولا أظن أحداً ممن خبر المستشرقين مباشرة خلال دراسته وتدريسه يمكن أن ينبري للدفاع عن المستشرقين وكتاباتهم. إلا أنه لا ينبغي أن ينسى في غمرة دفاعه عن الإسلام ضد شبهات المستشرقين ونواياهم التي علمها عند أكثرهم، ما أمرنا الله به في كتابه العزيز حيث قال: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. (المائدة/ 8).

وأؤكد من جديد أن المستشرقين الحاقدين على الإسلام لن يهتزوا لقراءة نقد غير علمي لما يكتبونه ويغلفونه بغلاف علمي ظاهري يخفي النوايا السيئة عند كثير منهم، قدر اهتزازهم لنقد تراعى فيه الدقة العلمية والموضوعية في العرض والنقد. ولا أجد سبباً واضحاً يخيف الباحث المسلم من التمسك بالموضوعية العلمية، فديننا هو الحق ومنهجنا هو المنهج القويم وحججنا هي الأقوى، فمن توفرت لديه كل هذه العناصر: الدين ـ الحق ـ والمنهج القويم ـ والحجة القوية، لا ينبغي أن يضيع كل ذلك بخوف يؤدي إلى الانسحاب من ساحة الجدال، أو اللجوء إلى حماس عاطفي يخفي الحقائق الموضوعية في حجته ويسلم حجة قوية ضده إلى من أراد هو نقده أو نقضه.

إن تكرار ما كتب عن الاستشراق دون تمحيص واعتبار لما حدث من تطور في هذا المجال يضع الفرصة السانحة الآن للتأثير علىٰ جيل المستشرقين الجديد الذي أظنه قابلاً للتأثير بما يكتب بأسلوب علمي هادىء مقنع، ولا ينظر إلى سوى ذلك. فإن كنا ندعي لأنفسنا العلم والمنهج العلمي فلا بد أن نطبق ذلك في أعمالنا كلها أولاً وإلا انطبق علينا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. (الصف/ 3) والله من وراء القصد.